# نشأة وتطور الديانة في وادي الرافدين

الدكتور بلخير بقة، جامعة ابن خلدون تيارت

**الملخص باللغة العربية:** يعتبر الدين بمنطقة وادي الرافدين أول نظام ديني عميق ابتدأت منه العصور التاريخية للإنسان ، فقد كانت أديان ما قبل التاريخ تفتقر إلى شبكة النظامية الدقيقة التكوين ، ولوحدة الإيقاع في العقيدة والطقوس والميثولوجيا ، وكان ظهور الدين ثورة روحية عميقة في عصره ، لأنه كان نظاما دينيا شاملا ، ثم أنه احتوى ضمنا أغلب بذور جذور الأديان التي ظهرت عبر المراحل التاريخية للإنسان.

**الكلمات المفتاحة العربية:** العراق ، وادي الرافدين ، الديانة ، الديانة في بلاد ما بين النهرين ، المعتقدات.

**The Origins and Development of Religion in Mesopotamia**

Religion of the Mesopotamia region was the first deep religious system from which the historical ages of man began. Prehistoric religions lacked a system of meticulous system formation, and the unity of rhythm in doctrine, rites and mythology. The emergence of religion was a profound spiritual revolution in its time because it was a global religious system, and then implicitly contained most of the seeds of the roots of religions that emerged through the historical stages of man.

**Key Words:** Iraq, Mesopotamia, Religion, Mesopotamian Religion, Beliefs.

اكتسب إنسان الشرق الأدنى القديم في حقبة ما قبل التاريخ العديد من التجارب الطويلة التي مارسها خلال عمليات صراعه مع البيئة بقواها المختلفة ، كما أنه من ناحية أخرى قد اكتسب أيضا العديد من التجارب المتوارثة ، مما قد هيأ له إمكانية بداية التوصل إلى بعض الأصول الخاصة بتفسير بعض ظواهر الحياة من حيث كنهها وغايتها ، ومحاولة ربط ذلك بحاضره ومستقبله. ويصعب على المؤرخ تحديد تاريخ معين لتلك البداية ، لصعوبة تواجد الآثار المباشرة والكافية لذلك التحديد ، ولكن يمكن القول بأن تطوره الفكري قد استغرق وقتا طويلا تدرج فيه إلى أن وصل فعلا إلى ممارسة بعض التقاليد الدينية وترك بعض الآثار المعبرة عنها[1].

وبحلول العصر الحجري الحديث (10000-6000 ق.م)، وعصر النحاس وعصور ما قبل الأسرات بدأ الفكر الديني في منطقة الشرق الأدنى القديم يأخذ منحى جديدا ، حيث استقرت فيه الأصول الأولى للفكر ، وبدأت مراحل التطور التدريجي النامي نحو المزيد من الاستقرار في محاولة الوصول إلى الحقيقة في مجال قدرة العقل الإنساني ، فكان لمنطقة الشرق القديم في هذا الصدد أولولية خاصة تتصل بعلاقة المنطقة بالجانب المادي للدين.

وهذا ما يمكن مشاهدته على الآثار التي عبرت عن الفكر الديني لإنسان تلك الفترة ، ولوحظ أن هناك اتصالا وثيقا بين ما هو فكري وما هو مادي ، خاصة منها الحياة الزراعية ، فقد آمن الإنسان ابتداءً من هذه الفترة بأن الإنتاج الزراعي ارتبط برضا القوى الطبيعية ، وآمن أن سعادته ترجع إلى مدى رضا هذه القوى عنه[2].

وفي حضارة وادي الرافدين تشير الدلائل الأثرية إلى أن الإرهاصات الأولى للمعتقدات الدينية ترجع إلى أزمان بعيدة من عصور ما قبل التاريخ[3] ، أي أن المعتقد الديني في المنطقة سلك مبدأ التطور الذي يتحكم في جميع النتاجات البشرية سواء كانت تلك النتاجات مادية أو فكرية ، وهذا يفرض علينا القول بأن المعتقدات الدينية لفترة العصور التاريخية لا بد وأن تكون متشبعة من المعتقدات التي سادت خلال العصور الحجرية مرورا بالحضارات الزراعية[4] ، وعن مبدأ تطور الدين يقول جفري بارندر: "لا بد أن الحس الديني قد خضع لنفس التطور الذي خضع له الإنسان ، فاختلف وفقا لمراحل كثيرة لارتباطه ارتباطا وثيقا بالإطار الثقافي الذي وجد فيه"[5].

ورغم قلة المادة الأثرية المتعلقة بموضوع الفكر الديني في هذه الفترة-عصور ما قبل التاريخ- ، إلا أن هناك من الآثار التي يمكن الاستدلال منها على ممارسة الإنسان العراقي لبعض التقاليد الدينية. وتتركز تلك الآثار بصفة خاصة في الرسوم والنقوش التي تركها على جدران وأسقف الكهوف والمغارات التي كان يتخذها كمنازل ، هذا بالإضافة إلى عدد من التماثيل ذات الصفة الدينية[6] ، وكذلك العديد من التمائم الحجرية ، والصدفية والطينية ، بالإضافة إلى المقابر التي عثر عليها.

ويذهب طه باقر إلى اعتبار العصر الحجري القديم (500000-250000ق.م) بداية لظهور الدين في بلاد الرافدين ، حيث وُجدت في جدران الكهوف رسومات وصور ملونة دقيقة ، وأغلب هذه الصور تمثل الحيوانات التي كان يصطادها الإنسان في تلك الفترة لأكلها ، لأنه كان مدفوعا في فنه بدوافع السحر ، حيث اعتقد أنه برسم الحيوانات يتمكن من السيطرة عليها ، ونشأت عند إنسان هذا العصر بعض الأفكار عن الحياة والموت ، وظهرت أولى محاولات بذور الدين على هيئة اعتقادات ورسوم بدائية وممارسة السحر ، ويمكن اعتبار السحر أول محاولة فاشلة للإنسان للسيطرة على الطبيعة بأعمال السحر[7].

وباعتبار منطقة بلاد الرافدين جزءا لا يتجزأ من منطقة الشرق الأدنى القديم ، فقد عرفت نفس التحول في الفكر الديني بحلول العصر الحجري الحديث ، ذلك أن حياة الإنسان العراقي القديم قد تغيرت تغيراً ملحوظا ،فظهور الزراعة عد انجازا بمثابة الثورة الأولى في تاريخ البشرية لأنه نقل الإنسان من إنسان مستهلك إلى إنسان منتج ، فكان هذا الانجاز يمثل انعطافاً مهماً في تاريخ البشرية ، وعلى أثر ذلك ارتفعت قيمة الأرض التي زودته بغذائه ، وبدأ الإنسان يشعر بالانتماء إليها أكثر من السابق ، فبدأت مرحلة استقراره وانتهت حياة الترحال

وجمع القوت ، إن الزراعة اقتصرت في العراق القديم في بادئ الأمر على مجموعة من القرى الزراعية المنتشرة في المنطقة الشمالية مثل قرية جرمو (قرب جمجمال) التي تعود إلى الألف السابع ق.م ، ومنذ عصر العبيد (منتصف الالف الخامس ق.م) انتشرت الزراعة في جميع أنحاء بلاد الرافدين[8].

وقد اعتمد سكان المنطقة بصورة رئيسية في زراعتهم على المطر كما الحال في الوقت الحاضر بالنسبة لزراعة الحبوب في المناطق الشمالية من وادي الرافدين ، والسبب في ذلك لأن أراضي هذه المناطق متموجة ولا ينفع معها استخدام أنظمة الري ، ولذلك فإنها مضطرة للاعتماد على مياه الأمطار ، وبسبب هذه الحقيقة فإن أولى هذه الحضارات الزراعية الديمية قد نشأت في المناطق التي كانت أمطارها الفصلية كافية لنمو الزرع أي عند سفوح

**الصورة رقم (01): مجموعة من تماثيل الرخام تمثل عبادة الآلهة الأم.**

http://www.alnoor.se/article.asp?id=34500

الجبال في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من وادي الرافدين[9].

وقد رافق الانتقال من مرحلة جمع القوت إلى الإنتاج ظهور بعض الآلات والأدوات

التي استخدمها إنسان ذلك العصر في الزراعة ، وفي حياته اليومية بعد أن قام بصناعتها مثل الآلات المصنوعة من الحجر التي استعملت في طحن الحبوب والحرث والحصاد ، وكذلك مدقات كروية طويلة ومناجل مصنوعة من حجر الصوان ، وطبلات لمزج الأصباغ ومجموعة جيدة من عدد الخياطة المصنوعة من العظم كالإبر والمخارز[10].

واعتماد الإنسان الرافدي على الزراعة في حياته كان سببا في عبادته للخصوبة وهي عبادة الأرض أو الآلهة الأم كما تدل على ذلك دمى الطين التي وُجدت في جرمو[11] وحسونة[12].. مستوطنات العصر الحجري الحديث ، وهي تمثل امرأة بدينة مبالغ في حجم ثديها[13] (ينظر الصورة رقم 01)، فالأرض في نظره لا تحتاج إلا إلى الخصوبة ، فعند توافرها

يكثر الإنتاج الذي هو أساس بقائه[14]، واختياره تمثال الأم تعبيراً عن حيوية الأرض والخصوبة تعبيراً عن إيمانه بأن القوى الخفية التي تحقق ذلك، والمرجح أن عبادة الشمس بسبب أثرها في الزراعة قد بدأت بعد عبادة الأرض على هيئة آلهة، كما وُجدت تماثيل مصنوعة من الطين والفخار ترمز إلى عضو الذكر ولعلها اتخذت للعبادة باعتبارها ترمز إلى الخصب والحياة[15]، وتطورت العبادة فيما بعد حتى أصبح غياب الماشية وخضرة الأرض في فصلي الخريف والشتاء يعني غياب دموزي إله الخصب[16].

وعلى ذلك يمكن القول بأن الفكر الديني في مرحلة العصر الحجري الحديث، كان بمثابة خطوة حاسمة في التطور نحو عقائد أكثر استقرارا وتكاملا في المراحل الحضارية التالية، والواقع أن نشأة القرى والمجتمعات المستقرة قد ساعدت كثيرا في تركيز الفكر الإنساني في محاولة الاستقرار في حياته العقيدية. ولكنه لم يكتف بذلك القدر، بل سرعان ما تابع تعمقه في ذلك المجال أثناء العصر الحجري النحاسي، وعصور ما قبل الأسرات كمراحل أخيرة متممة للمراحل السابقة، حيث عثر على مقابر لبعض الحيوانات باعتبارها ترمز لبعض القوى الإلهية في مجتمعه الزراعي[17].

ويمثل الفكر الديني السومري حلقة من حلقات تطور الفكر الديني في وادي الرافدين، وهو نابع من مختلف التجارب التي واجهها الإنسان السومري جنوب وادي الرافدين، فقد بدأ السومري حياته في تلك المنطقة بإنشاء القرى وإقامة الحياة الزراعية والصناعية المستقرة فيها، ولكنه سرعان ما واجه منذ البداية بيئة أرضية وجوية ومائية نهرية وبحرية متغيرة لم تنعم بالاستقرار، اتصفت بالتقلب والتغير المستمر، ووصل مداها إلى درجة تهديد حياة الإنسان[18]، فبالإضافة إلى فيضانات الدجلة والفرات، فالأمطار العاتية شكلت هي الأخرى خطرا وحولت الأراضي إلى بحر من الطين.

ولم تكن كل هذه الكوارث شرا، فقد حققت له بعض النفع[19]، وقد دفعته هذه الحوادث منذ عصور ما قبل الأسرات أي منذ عصر العبيد إلى البحث والتعمق في دوافع الإشكالات البيئية، وهل من وسيلة للتحكم فيها[20]، ولن يتم له ذلك إلا بعبادتها وإرضائها، أي أن هذه الظروف ساعدت على بروز فكرة دينية جديدة تعتمد في جوهرها على تقديس العوامل الطبيعية المختلفة[21] هذا من جهة، ومن جهة ثانية اتخذت هذه الحوادث حدا فاصلا في حياته الفكرية واهتم بتسجيلها، على أنّ أهم خطوة خطاها هي اختراعه الكتابة الصورية التي كانت العنصر الفعال في كافة القيم والمعتقدات، وقد وصل الاهتمام بهذه الخطوة الحضارية الهامة إلى اعتبار عملية التدوين في حد ذاتها لها ارتباطها المباشر وغير المباشر بالفكر الديني والمعابد والكهنة[22].

إن هذا الانتقال في العبادة دليل على تطور الوعي الفكري والديني لسكان بلاد الرافدين، ودليل واضح على أن الإنسان بذل جهودا كبيرة في تفسير كل ما هو محيط به،

ومن ثم البحث الدؤوب عن أصل الحياة الذي تدرج به من الخصوبة التي اعتقدها في بادئ الأمر أساسا لكل ما حوله تبعا لتطور نمط حياته وأسلوب تفكيره وتفاعله مع بيئته ، ونتيجة لذلك كله توصل إلى وجود أساس بنى عليه كل شيء على وفق تسلسل (الماء والخصوبة والحياة)، لأن الحياة لديه تعتمد بدرجة أساسية على الخصوبة المعتمدة على الماء ، مما حدا بالإنسان العراقي القديم إلى الانتقال إلى مرحلة مهمة في التفكير الديني ألا وهي التفكير في العوامل المؤثرة ومن ثم تقديسها ، إذ نشأ الاعتقاد بوجود (كائنات روحية) غير مرئية وغير مادية نسب إليها خواص ما فوق الطبيعة – من مختلف الأرواح الشريرة والخيرة ، وهذا الإيمان أو الاعتقاد نتج بسبب عدم فهم الإنسان لطابع ظواهر الطبيعة[23].

إن تجسيم قوى الطبيعة كان يمثل أحد الأسباب التي دفعت السومري إلى ابتكار فكرة الآلهة ، أما السبب الآخر فيتجلى في الخوف الذي يعتري هذا الإنسان ، حيث دفعه هذا الشعور إلى ابتكار فكرة الآلهة ليجد فيها ملجأ يزيل عنه هذا الخوف ، وسبب هذا الخوف يكمن في صراعه مع قوى الطبيعة من حيث تذبذب مياه الأمطار وفيضان الأنهار ، ومما زاد في خوفه وقلقه هو موقفه المتميز إزاء العالم الآخر ، عالم ما بعد الحياة الذي كان شيئاً مخيفاً مجهولاً بالنسبة له ، واقتران عالم الأموات بالثواب والعقاب المؤمل[24].

ومع أن الإنسان العراقي القديم خاف من الموت ، إلا أن ذلك لم يكن العامل الأساسي الذي دفعه لابتكار الآلهة ، لأنه كان مدركاً بأن الموت أمر حتمي مقدر من الآلهة ، ولكن رغبته في تفسير تلك الظواهر المخيفة بالنسبة له هو المصدر أو العامل الأساس ، وبمعنى آخر هو صراع الإنسان مع الطبيعة من أجل البقاء ، لكن ضمن المدة المقدرة من قبل الآلهة لعيشه على ما يبدو. ويذهب البعض إلى أن أصل ديانة بلاد الرافدين قد ابتعدت عن أصناف الديانات البدائية التي دانت بها الشعوب الأخرى مثل الطوطمية والفيتشية[25].وهذا الرأي جاء مخالفاً لرأي ج. بري الذي يقول: "إن عبادة الآلهة ما هي في الأصل إلا عبادة للأجداد اعتنقها أعضاء الجماعات الحاكمة..."[26]. وأيده في هذا الرأي جان بوتيرو في قوله: "إن ديانة بلاد الرافدين مثل معظم الديانات القديمة أو المعاصرة لها في العالم الواسع لم تكن تاريخية بل بدائية فلم يتم تأسيسها في نقطة معينة من التاريخ على يد مفكر قدير.."[27].

ومن أجل وضع حد لمخاوف إنسان بلاد الرافدين فإنه سعى بشكل حثيث من أجل فهم وتفسير الظواهر الطبيعية ، ومن ثم العمل على السيطرة على بعض تلك الظواهر في سبيل التحكم بها بما يخدم حياته ، ولم يكن ذلك ممكنا حسب اعتقاده إلا بإيجاد القوى أو القوانين التي تمتلك السيطرة على تلك الظواهر من خلال ما شكلته هي نفسها من قوى روحية كامنة في الظواهر ذاتها ، وذلك عن طريق خلق النظام الذي يُسَيرَّ تلك الظواهر انسجاما مع تمنيات الإنسان ومصلحته ، وضماناً لوجوده وما هذه القوى سوى الآلهة ، وما القوانين سوى الأوامر والأفعال التي نسبت لهذه الآلهة لتحقيق الغرض المنشود[28].

فقد اعتبر الإنسان الرافدي أن ما يحيط به مملوء بالمقاصد والإشارات الموجهة إليه ، وطبق ذلك على ما هو في الأعلى (السماء) ، وما هو في الأسفل (الأرض) ، وعلى كامل الطبيعة التي زودها بنوايا وجعلها تمنحه مساعدتها أو تعاديه وفقا لتصرفاته[29] ، فاعتبر السماء منذ البداية ذات أولوية خاصة في فكره الديني ، ويمكن محاولة تفسير ذلك على أساس أن السماء بالنسبة إليه كانت مصدرا للأمطار المتجمعة في مجاري الأنهار ، وبالتالي مصدرا أساسيا لري الأراضي الزراعية التي يعتمد عليها في حياته ، وقد عبر في اللغة السومرية عن السماء بكلمة آن (An) ومن هنا آمن بوجود تلك القوة الخاصة التي تتحكم في السماء ، وحملها الصفة الإلهية ، وبذلك اعتقد في وجود إله السماء آن ، وقد استمر في متابعة الاعتقاد في وجود قوى أخرى عديدة اتجه أيضا إلى تأليهها ، ومن أهم تلك القوى الفعالة في حياته الهواء أو الجو والأرض والكواكب كالشمس ، القمر ، النجوم ، البحر والنهر ، ولم يكتف الإنسان السومري بتلك القوى فحسب بل اتجه إلى الاعتقاد أيضا في وجود عدد ضخم من القوى المتحكمة في كافة مظاهر الحياة حتى جوانبها الخاصة أطلق عليها باللغة السومرية كلمة دينجر(Dingir) بمعنى إله.

كما آمن الإنسان السومري بفائدة تلك الآلهة التي يمكن تسميتها بالآلهة الثانوية بالمقارنة بالآلهة الرئيسية في المجال الاقتصادي والحيوي بوجه عام ، فهي القوى التي يعتمد عليها اعتمادا مباشرا في تسيير مختلف شؤون حياته ، ومن أمثال تلك الآلهة الثانوية الإلهة نيسابا (Nissaba) إلهة القصب والإلهة نينتو (Nintu) إلهة الولادة الشخصية التي اعتبرها بمثابة قوى إلهية خيرة توجه الإنسان في حياته[30] ، أي أن تعدد المظاهر الطبيعية التي كان لها اثر قوي في كونهم وحياتهم ، وهذا التعدد دفع بهم إلى عبادتها ، وتجسيمها في هيئة آلهة ، لها صفات وخصائص مميزة ، وواجبات محددة ، فصار لكل من هذه القوى إله ، أو أن كلا منها في ذاتها جسّدت إلها معينا[31] .

كما اتجه الإنسان السومري إلى الاعتقاد في وجود تنظيم جماعي كبير لكافة القوى وذلك في جمعية عمومية إلهية كالموجودة عند البشر[32] ، فقد قسمت الآلهة إلى أشكال تنظيمية مختلفة ، فهناك الآلهة الكبار (ملوك) ، وآلهة وزراء ، وآلهة صغار ، فجعلوهم طبقات ، ونظموا أمورهم في مجلس أو هيئة دعوها الأنوناكي (آلهة الأرض) ، والإيجيجي (آلهة السماء)[33] ، ونسبوا إلى آلهتهم صفات البشر الروحية والمادية[34] ، إذ أنهم شبهوا آلهتهم بالبشر تمامًا وأضفوا عليها جميع الصفات البشرية[35] ، غير أنها كانت تنفرد بصفة تميزها عن البشر ألا وهي صفة الخلود والبقاء الأبدي ، بينما جعلت الموت من نصيب الإنسان ، لذلك نلمس من الناحية الأثرية عدم إعطاء الفرد العراقي القديم الأهمية الأولى للمنازل الأبدية (أي المقابر)[36] .

وكان للهجرات السامية إلى منطقة وادي الرافدين أثر في نوعية الفكر الديني ، فقد تبنت هذه الشعوب آلهة الأقاليم القديمة التي تعود أصولها إلى عصور ما قبل التاريخ ، والتي كانت تمثل قوى الحياة والموت وأسرار الكون التي شكلت دعائم السومريين[37]. فعن هذا التأثير وهذه الاستمرارية التاريخية يقول جان بوتيرو في كتابه الديانة عند البابليين: "اقتبس الساميون منذ استيطانهم للقسم الجنوبي من هذه البلاد ، وخلال غزواتهم المتتالية ، حضارة السومريين القاطنين هناك وكذلك ديانتهم ، وعلامة الفصل في التوقف عن هذا الاقتباس بصورة نهائية ومتكاملة هو إلغاء استعمال اللغة السومرية ، واقتصروا في استخدامها على الطقوس والشعائر الدينية ، واستمر هذا الوضع حتى نهاية عهدهم.. لقد كان ذوبان الساميين بالسومريين متكاملا جدا ، وتحليل ذلك صعب جدا أيضا.. فقد بقي مجمع الآلهة كما كان عند السومريين بعد أن طُعم بشخصيات جديدة وتسميات جديدة. أما الطقوس والتقاليد فلم يطرأ عليها أي تبديل. وكذلك بالنسبة إلى الخطوط العريضة لأساطيرهم واعتقاداتهم.."[38]

فقد تأثر الأكاديون الذين استوطنوا بلاد الرافدين بالحضارة السومرية ، وبخاصة في المجال الديني فاحتفظت الآلهة السومرية بمكانتها لديهم[39]، وعندما استطاعوا أن يفرضوا سلطانهم على سومر قرابة منتصف الألف الثالثة ق.م لم يسعوا وراء تحريم المعبودات السومرية ، بل اكتفوا بأن يمنحوا -في أغلب الأمر- المعبود الاسم السامي الشائع فإله الشمس "أوتو" في لارسا يماثله "شمش" إله الشمس السامي الذي ازدهرت عبادته في سيبار (أبوحبة) في أكد ، وكوكب الزهرة التي تعبد تحت اسم "اينيا" في مدينة الوركاء كانت هي "عشتار" الأكدية[40] مع احتفاظهم بصفاتها الأساسية[41]، وفي ذلك يقول توينبي: "فأكثر الآلهة الأكدية كانت آلهة سومرية تخفيها غلالة دقيقة من الأسماء السامية"[42].

وفي العصر الأكدي دخل تقديس الملوك لأول مرة ، مثلما حدث مع الملك "نرام-سن" حيث صور هذا الملك في المنحوتات بالقرنين على خوذته وهي إشارة الإلوهية ، وسبق اسمه في الكتابات بعلامة إله ، ومن الصعب معرفة الأسباب التي أدت إلى ظهور عبادة الملك والتي ربما يكون هو نفسه قد شجع عليها[43]، ومن المرجح أن هذه العبادة جاءت نتيجة احتكاك الأكاديين بالمصريين ، وتأثرهم بفراعنتهم الذين كانوا يدَّعُون خلال هذا العصر أنهم "أبناء الآلهة" ، لذلك يُرجح أن يكون الأكاديون قد طوَّروا هذا المفهوم لقدسية الملك من "ابن الإله" إلى "الإله نفسه"[44].

وقد عمت هذه الظاهرة خلال سلالة أور الثالثة حيث اعتبر ملوكها من شولكي آلهة وكذلك غالبية ملوك سلالتي أيسن ولارسا ، وصار الناس يقسمون بهم ، ونظمت التراتيل لهم ، وأدخلت الأعياد على شرفهم ، ودخلت أسماؤهم في أسماء الناس الشخصية ، كما خصصت في هذا العصر آلهة كثيرة للحرب والنصر مثل "أنونا أريننا" (نصر) و"شدوري" (حصين)[45]. واختفت في عهد السلالة البابلية الأولى ، ثم ظهرت في عهد الكاشيين كموجة

عابرة، وهناك اعتقاد بأن الملوك الأشوريين المتأخرين جدًا قد مُجدوا كآلهة من قبل الشعوب التي كانت تخضع لسيطرتهم[46].

وقد عرف الفكر الديني أهم تغير نسبي مع مجيء الأموريين، فعندما أصبحت بابل المركز الرئيسي في وادي الرافدين أصبح الإله "مردوخ" هو الإله الرئيسي لدى البابليين وعلا شأنه خاصة مع وصول حمورابي إلى الحكم، ولما أراد الكهنة تثبيته قالوا أنه حقق مآثر كثيرة اتجاه الآلهة، فأصبح بذلك هو الإله الأعلى، وقد صورت الأساطير البابلية هذا الإله خاصة في أسطورة الخليقة البابلية[47]، وقد أدرك البابليون إمكانية ظهور آلهة متعددة كأوجه لرب واحد (التفريد)، وهو نقرأه في النص التالي: "نركال هو مردوخ المعارك، زبابا هو مردوخ المذابح، انليل هو مردوخ الشورى والحكم، وشمش هو مردوخ الحق والعدل"[48]. ومع أن هذا الإله احتل المكان الأول في الاحتفالات والطقوس، إلا أن الكهنة والشعب لم يتخلوا عن آلهتهم القديمة.

ولم يسع الكاشيون عند مجيئهم إلى إلغاء الديانات المحلية التي بدت راسخة وطيدة بل أنهم أسهموا في تزيين المعابد وبنائها وتشييد الزيقورات[49]، كما طابقوا آلهتهم مع الآلهة البابلية، فطُوبق الإله "شيباك" مع مردوخ، كما تعاظم دور مردوخ ووصل قمته في هذا العصر، وتقدم الأسماء المدونة على الأختام ومختلف النصوص كثرة الأسماء التي دخل في تركيبها مردوخ وكثرة رموز هذا الإله وصوره، وهناك أسماء ذهبت بعيدا في رفعة مردوخ مثل"مردوخ كبيتي ايلاني" بمعنى: أثقل الأرباب وزنا مردوخ، و"ومردوخ شار ايلاني" بمعنى: مردوخ ملك الآلهة. ويبدو أن الكاشيين جعلوا آلهتهم أربابا ثانوية واكتفوا بتصوير رموزها[50].

أما عند الأشوريين فقد بقيت الأصول الدينية البابلية أيضا في جوهرها تهيمن عليهم. إلا أن الدين لم يكن له من السلطان على أصحاب الحكم بقدر ما كان له في بابل، وقد كيّفوا الدين بحيث يصبح ملائما للميول الحربي والطابع العسكري الذي تميز به الأشوريون[51]. فكان أشور هو إلههم القومي، وملك الآلهة جميعا، فهو خالق البشرية عندهم وهو إله الحرب واحتلت زوجته "عشتار" المركز الثاني عند الأشوريين[52]، وقد دلت الأسماء من "عشتار" و"سين" و"شمش" بأن الأشوريين قدسوا وعبدوا الأجرام السماوية (شمش وادد)[53].

ومع ظهور ملوك السلالة البابلية الحديثة ظهرت الديانة التوحيدية بعد أن جاء اليهود إلى بلاد بابل إبان السبي البابلي الثاني، وقد أدت إلى زعزعة المعتقدات الدينية القديمة، وظهر صراع ديني حاد بين الناس، وربما ذلك دفع آخر ملوك هذه السلالة نابونائيد إلى التركيز على عبادة الإله "سين" إله القمر ليواجه الديانة التوحيدية الجديدة، سيما وأن الإله سين من الآلهة المعروفة لدى جميع الأقوام التي خضعت للنفوذ البابلي والأقوام القادمة من الجزيرة العربية بخلاف عبادة مردوخ التي اقتصرت على بلاد بابل، غير أن اهتمامه بالإله

سين وإهماله للإله الرئيسي مردوخ أثار سخط كهنة بابل وسكانها الذين رأوا في ذلك انتقاصا من عبادة إلههم القومي، وتشير النصوص المسمارية إلى أنه عاود الاهتمام بالإله مردوخ لترضية السكان والكهنة، وقد استغل كورش الفارسي هذا الصراع فادعى بأنه جاء إلى بابل لإنقاذها وآلهتها القومية[54].

إن هذه الإلمامة السريعة بالملامح التي مرت بها الديانة في منطقة وادي الرافدين تبين لنا شيئين مهمين:

- أن الدين السومري أول نظام ديني عميق ابتدأت منه العصور التاريخية للإنسان، فقد كانت أديان ما قبل التاريخ تفتقر إلى شبكة النظامية الدقيقة التكوين ولوحدة الإيقاع في العقيدة والطقوس والميثولوجيا، وكان ظهور الدين السومري ثورة روحية عميقة في عصره لأنه كان نظاما دينيا شاملا، ثم أنه احتوى ضمنا أغلب بذور جذور الأديان التي ظهرت عبر المراحل التاريخية للإنسان[55].

- أن الدين في منطقة وادي الرافدين كل متكامل له أصول واحدة وإن اختلفت بعض صوره فالتطورات السياسية أثرت في مركز الآلهة علوا وهبوطا، حيث كان إله الدولة المتفوقة يغدو إلها رئيسيا أو محليا شاملا لما تكون الدولة قد أخضعته لسلطانها من أقاليم ومتفوقا على آلهتهم، ولم تكن هذه الظاهرة مع ذلك تؤدي إلى إهمال الآلهة التي نزلت عن مركزها نتيجة لعلو منزلة السلالة المتفوقة، بل كانت تبقى في عداد الآلهة إما نتيجة لتمسك عابديها الأولين أو لما شغلته في الأذهان من مكانة دينية [56]، وهو ما ذهب إليه فيليب حتي في قوله: "إن أقدم شكل نعرفه للديانة العراقية القديمة كان في جوهره تأليها لقوى الطبيعة وعبادتها، ففي أثناء العصور التي تطورت فيها هذه الديانة، نلحظ أن السومريين سكان البلاد الأوائل قسموا الكون إلى السماء والأرض وما يتولى أمرها ثالوث من الآلهة، وعندما جاء الساميون الجدد أقاموا نظام ديانتهم على أساس الديانة السومرية، وعندما زهت بابل وعلت مكانتها أصبح الإله السامي مردوخ ولقبه البعل إله الأمة الأول، وكذلك الأمر عندما بلغت نينوى شأنا مرموقا ارتقت مكانة إله سامي آخر هو الإله أشور وأصبح رئيسا للآلهة.."[57].

**الهوامش:**

(1)- رشيد الناضوري، **المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا**، الكتاب الأول، دار النهضة العربية، بيروت، 1969، ص 30.

(2)- نفسه، ص 32-33.

(3)- علي فاضل عبد الواحد، سليمان عامر، **تاريخ العراق القديم**، ج2، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، 1980، ص5.

(4)- فوزي رشيد وآخرون، **الديانة، حضارة العراق**، ج1، دار الحرية، بغداد، 1985، ص 145.

(5)- جفري بارندر، **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مر: عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 173، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1993، ص 08.

(6)- علي فاضل عبد الواحد، سليمان عامر، المرجع السابق، ص05.

(7)- طه باقر ، **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة** -تاريخ العراق القديم-،ج2 ، ط2، دار المعلمين العالمية ، بغداد ، 1955 ، ص 36.

(8)- تقي الدباغ ، **الوطن العربي في العصور الحجرية**، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1988 ، ص107.

(9)- فوزي رشيد وآخرون، المرجع السابق ، ص 146.

(10)- تقي الدباغ ، المرجع السابق، ص 119.

(11)- **جرمو:** وهو موقع يقع شرق كركوك في منطقة كردستان العراقية ، ويعرف هذا الموقع الآن باسم"قلعة جرمو" ، ويتكون موقع قرية جرمو التي تعتبر من أقدم قرى العصر الحجري الحديث من ستة عشر طبقة أثرية تمثل مرحل تطور هذه الحضارة التي يعود تاريخها إلى حوالي 6750 ق.م. ينظر: أحمد أمين سليم ، **دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**-مصر ، العراق ، إيران- ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1989 ، ص 81.

(12)- **حسونة**: يقع التل في غرب نهر دجلة جنوب الموصل ، وقد عثر فيه العراقيون على آثار ما يسمى بحضارة تل حسونة ، يتكون موقع حسونة من سبع عشرة طبقة أثرية ، ويوجد الإنتاج الحضاري الخاص بالعصر الحجري الحديث في الطبقات الخمس الأولى منها ، ويؤرخ بداية حضارة حسونة ببداية الألف السادس ق.م. ينظر: أحمد أمين سليم ، **دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم** -العراق ، إيران- دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1996 ، ص 89.

(13)- طه باقر ، المرجع السابق ، ص 44.

(14)- أكرم مُحَمَّد كسار ، قراءة في نتاجات الإنسان الفنية الأولى ، مجلة سومر ، مج39، المديرية العامة للآثار ، بغداد ، 1983 ، ص24.

(15)- طه باقر ، المرجع السابق ، ص 44. للمزيد حول عبادة الآلهة الأم ينظر: نائل حنون ، شخصية الأم ودور الآلهة انانا عشتار، مجلة سومر ، مج34، المديرية العامة للآثار ، بغداد ، 1978 ، ص ص 22-30.

(16)- قاسم الشواف ، **ديوان الأساطير**-سومر وأكد وأشور-الكتاب الأول ، دار الساقي ، بيروت ، 1996 ، ص 104.

(17)- رشيد الناضوري ، المرجع السابق ، ص42.

(18)- نفسه ، ص 53.

(19)- أحمد أمين سليم ، (**دراسات في حضارة..**) ، المرجع السابق ، ص 171-172.

(20)- رشيد الناضوري، المرجع السابق ، ص 54.

(21)- فوزي رشيد ، المرجع السابق ، ص 147.

(22)- رشيد الناضوري، المرجع السابق ، ص 49-50.

(23)- جامعة باترس ، **عرض اقتصادي تاريخي**، ج1 ،مطبعة مكتبة التحرير ، بغداد ، 1961 ، ص 44-45.

(24)- نفسه ، ص ص 352-354.

(25)- **الفيتشية (Fetishism)**: من اللاتينية هو أي موضوع مادي تسبغ عليه القداسة لاعتقاد بقوة خارقة تسكنه وتشع منه. ينظر: طه الهاشمي ، **تاريخ الأديان وفلسفتها**، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1963 ، ص46.

(26)- ج .بري ، **نمو الحضارة** ، تر: لويس اسكندر ، مؤسسة روز اليوسف ، القاهرة ، 1961 ، ص201.

(27)- جان بوتيرو ، **بلاد الرافدين** (الكتابة- العقل-الآلهة) ، تر: البير ابونا ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1990 ، ص245-246.

(28)- حسن فاضل جواد ، **بواكير الفكر الفلسفي ومشكلات الوجود والأخلاق** ، بغداد ، 2003 ، كتاب غير منشور ، ص38.

(29)- قاسم الشواف ، المرجع السابق ، ص 16.

(30)- رشيد الناضوري، المرجع السابق ، ص 54-55.

(31)- رشيد عبد الوهاب حميد ، **حضارة وادي الرافدين**-ميزوبوتاميا- دار الثقافة ، دمشق ، 2004 ، ص89.

(32)- رشيد الناضوري ، المرجع السابق ، ص 55.

(33)- مُحَمَّد العريبي ، **موسوعة الأديان السماوية والوضعية** –الديانات الوضعية المفترضة- ط2 ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، 1995 ، ص 50.

(34)- فيصل عبد الله ، عبد مرعي ، **المدخل إلى تاريخ الحضارة** ، منشورات جامعة دمشق ، دمشق ، 2000 ، ص111-112.

(35)- Michael Welply, **Atlas Des Religions**, Costermon, Belgique, p 8.

(36)- فيصل عبد الله ، المرجع السابق ، ص111-112.
(37)- أنطوان مورتكات ، **تاريخ الشرق الأدنى القديم** ، تر: توفيق سليمان ، مطبعة الإنشاء ، دمشق ، 1967 ، ص 94.
(38)- جان بوتيرو ، **الديانة عند البابليين** ، تر: وليد الجادر ، ط1 ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، 2005 ، ص 31-32.
(39)- فيصل عبد الله ، عبدا لله مرعي ، المرجع السابق ، ص 110.
(40)- نجيب ميخائيل إبراهيم ، **مصر والشرق الأدنى القديم**-حضارات الشرق القديم العراق وفارس-ج6 ، دار المعارف ، لبنان ، 1967 ، ص 106.
(41)- فيصل عبد الله ، عبد الله مرعي ، المرجع السابق، ص 110.
(42)- أرنولد توينبي ، **تاريخ البشرية** ، تر: نقولا زيادة ، ج1 ، ط3 ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1985 ، ص97.
(43)- سامي سعيد الأحمد ، **المعتقدات الدينية في العراق القديم** ، دار المنشورات الثقافية ، العراق ، 1988 ، ص 12.
(44)- توفيق سليمان ، **دراسات في حضارات غرب آسيا من أقدم العصور إلى 1190 ق.م** (الشرق الأدنى القديم: بلاد ما بين النهرين ، بلاد الشام) ، دار دمشق ، دمشق ، 1985 ، ص136.
(45)- سامي سعيد الأحمد ، المرجع السابق ، ص12.
(46)- عبد الرضا الطعان ، **الفكر السياسي في العراق القديم** ، دار الخلود للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1981 ، ص410.
(47)- نعيم فرح ، **موجز تاريخ الشرق الأدنى**-السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي- دار الفكر ، (د.م) ، 1972 ، ص 44.
(48)- سامي سعيد الأحمد ، المرجع السابق، ص 14.
(49)- نجيب ميخائيل إبراهيم ، المرجع السابق، ص 107.
(50)- سامي سعيد الأحمد ، المرجع السابق، ص 15-16.
(51)- جميل مدبك ، **الديانات القديمة** ، دار كريبس ، بيروت ، 2001 ، ص 31.
(52)- جميل مدبك ، المرجع السابق، ص 31.
(53)- سامي سعيد الأحمد ، المرجع السابق، ص 13.
(54)- عامر سليمان ، أحمد مالك الفتيان ، **محاضرات في التاريخ القديم** ، مؤسسة دار الكتاب للطباعة ، الموصل ، (د.ت) ، ص 204-205.
(55)- خزعل الماجدي ، **متون سومر** ، الكتاب الأول ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن ، 1998 ، ص 46.
(56)- محمد عزة دروزة ، **تاريخ موجات الجنس العربي ومآثرها في العراق قبل العروبة الصريحة** ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، (د.ت) ، ص 160-161.
(57)- فيليب حتي ، **موجز تاريخ الشرق الأدنى** ، تر: أنيس فريحة ، دار الثقافة ، بيروت ، 1965 ، ص 57.

**قائمة المصادر والمراجع:**

1- إبراهيم نجيب ميخائيل ، **مصر والشرق الأدنى القديم**-حضارات الشرق القديم العراق وفارس-ج6 ، دار المعارف ، لبنان ، 1967.
2- الأحمد سامي سعيد ، **المعتقدات الدينية في العراق القديم** ، دار المنشورات الثقافية ، العراق ، 1988.
3- أمين سليم أحمد ، **دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**-مصر ، العراق ، إيران- ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1989.
4- ــــــــــ ، **دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم** -العراق ، إيران- دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1996.
5- باترس جامعة ، **عرض اقتصادي تاريخي**، ج1 ،مطبعة مكتبة التحرير ، بغداد ، 1961.
6- بارندر جفري ، **المعتقدات الدينية لدى الشعوب** ، تر: إمام عبد الفتاح إمام ، مر: عبد الغفار مكاوي ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد 173 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1993.
7- باقر طه ، **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة** -تاريخ العراق القديم- ،ج2 ، ط2 ، دار المعلمين العالمية ، بغداد ، 1955.
8- بري. ج ، **نمو الحضارة** ، تر: لويس اسكندر ، مؤسسة روز اليوسف ، القاهرة ، 1961.
9- بوتيرو جان ، **الديانة عند البابليين** ، تر: وليد الجادر ، ط1 ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، 2005 ،.
10- ــــــــ ، **بلاد الرافدين** (الكتابة- العقل-الآلهة) ، تر: البير ابونا ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1990.
11- توينبي أرنولد ، **تاريخ البشرية** ، تر: نقولا زيادة ، ج1 ، ط3 ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1985.
12- جميل مدبك ، **الديانات القديمة** ، دار كريبس ، بيروت ، 2001.

13- جواد حسن فاضل ، **بواكير الفكر الفلسفي ومشكلات الوجود والأخلاق** ، بغداد ، 2003 ، كتاب غير منشور.
14- حتي فيليب ، **موجز تاريخ الشرق الأدنى** ، تر: أنيس فريحة ، دار الثقافة ، بيروت ، 1965.
15- حنون نائل ، شخصية الأم ودور الآلهة انانا عشتار ، مجلة سومر ، مج34 ، المديرية العامة للآثار ، بغداد ، 1978.
16- الدباغ تقي ، **الوطن العربي في العصور الحجرية** ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1988.
17- دروزة مُحَمَّد عزة ، **تاريخ موجات الجنس العربي ومآثرها في العراق قبل العروبة الصريحة** ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، (د.ت).
19- رشيد فوزي وآخرون، **الديانة، حضارة العراق**، ج1 ، دار الحرية ، بغداد ، 1985.
20- سليمان توفيق ، **دراسات في حضارات غرب آسيا من أقدم العصور إلى 1190 ق.م** (الشرق الأدنى القديم: بلاد ما بين النهرين ، بلاد الشام) ، دار دمشق ، دمشق ، 1985.
21- سليمان عامر ، أحمد مالك الفتيان ، **محاضرات في التاريخ القديم** ، مؤسسة دار الكتاب للطباعة ، الموصل ، (د.ت).
22- الشواف قاسم ، **ديوان الأساطير**-سومر وأكد وأشور-الكتاب الأول ، دار الساقي ، بيروت ، 1996 ،.
23- الطعان عبد الرضا ، **الفكر السياسي في العراق القديم** ، دار الخلود للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1981.
24- عبد الله فيصل ، مرعى عيد ، **المدخل إلى تاريخ الحضارة** ، منشورات جامعة دمشق ، دمشق ، 2000.
25- عبد الوهاب حميد رشيد ، **حضارة وادي الرافدين**-ميزوبوتاميا- دار الثقافة ، دمشق ، 2004.
26- العريبي مُحَمَّد ، **موسوعة الأديان السماوية والوضعية** –الديانات الوضعية المفترضة- ط2 ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، 1995.
27- فاضل علي عبد الواحد ، سليمان عامر ، **تاريخ العراق القديم** ، ج2 ، مطبعة جامعة بغداد ، بغداد ، 1980.
28- فرح نعيم ، **موجز تاريخ الشرق الأدنى**-السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي- دار الفكر ، (د.م) ، 1972.
29- كسار أكرم مُحَمَّد ، قراءة في نتاجات الإنسان الفنية الأولى ، مجلة سومر ، مج39 ، المديرية العامة للآثار ، بغداد ، 1983.
30- الماجدي خزعل ، **متون سومر** ، الكتاب الأول ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن ، 1998.
31- مورتكات أنطوان ، **تاريخ الشرق الأدنى القديم** ، تر: توفيق سليمان ، مطبعة الإنشاء ، دمشق ، 1967.
32- الناضوري رشيد ، **المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا** ، الكتاب الأول ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1969.
33- الهاشمي طه ، **تاريخ الأديان وفلسفتها**، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1963.
34- Michael Welply, **Atlas Des Religions**, Costermon, Belgique.